﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾ [الزمر: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

شروعٌ في تعدادِ الأدلّـة الكونيَّة على ألوهيَّةِ الله وقاهريَّته

انتقلَ مِنَ الاستدلالِ باقتضاءِ حقيقةِ الإلهيَّةِ نَفْيَ الشَّريكِ إلى الاستدلالِ بخلقِ السَّماوات والأرض على أنَّه المنفردُ بالخلقِ؛ إذ لا يستطيعُ شركاؤهم خلقَ العوالمِ[1]، أي: بعد أنْ طَعَنَ تعالى في إلهيَّةِ الأصنامِ؛ ذكَرَ عَقيبَها الصِّفاتِ الَّتي باعتبارِها تَحصُلُ الإلهيَّةُ[2]، وفي هذا زيادةٌ في تقريرِ مضمون: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ وإبطالِ شِركهم الَّذي ذَكَرَهُ اللّه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ ولذا اشتملت الآيةُ على دلائل الرُّبوبيَّة مِن مظاهر الخَلق والتَّصرُّف المُطلَق، والتَّدبير العجيب المحكم في خلق الكونِ في قولهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وبيان الخلقِ والتَّدبير للنّاس في قولهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الزمر: 6][3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُكَوِّرُ﴾: (كور) أصلٌ يَدُلُّ على دَوْرٍ وتَجَمُّعٍ، وعلى إدارةِ الشَّيءِ على شيءٍ تهيئةً لجمعهِ عليه، يُقالُ: كارَ يَكورُ؛ إذا دارَ، وكَوْرُ العِمامَةِ: دَوْرُها، وقَولُهُ تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير: 1] أي: كَأنَّها جُمِعَت جَمعًا، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾، أيْ: يُديرُ هذا على ذاكَ، ويُديرُ ذاكَ على هَذا، أو يُلحِقُ أحَدَهما بالآخر،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423، وابن عادل، اللباب: 16/ 472.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.

أو تغشيةُ كلٍّ واحدٍ منهُما صاحبَه، أو إشارةٌ إلى جَرَيانِ الشَّمس في مطالعها، وانتقاص اللَّيلِ والنَّهار وازديادهما[1].

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: (سخر) أصلٌ يَدُلُّ على احتقارٍ واسْتِذلالٍ[2]، وسَخَّرَهُ تَسْخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلا أُجْرَةٍ، وسَخَّرَهُ سُخْرًا وسُخْريًّا: كلَّفَهُ ما لا يُريدُ، وقَهَرَهُ، والتَّسْخيرُ: التَّذليلُ، وكُلُّ ما ذَلَّ، وانقادَ، أو تهيَّأ لَكَ على ما تُريدُ؛ فقد سُخِّرَ لك، فتَسخيرُ اللّه الأرضَ وما فيها والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجومَ لِلآدَميّينَ هو إجراؤها على ما يوافقهم، وأنْ ينتفعوا بها مختلفَ وجوهِ الانتفاعِ مذلَّلةً لهم فضلًا منه تعالى[3]، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، فالمُسَخَّرُ هو المقيَّض للفعل[4]، فالمقصودُ بتسخيرِ الشَّمس والقمر هو تذليلُهما للعملِ على ما جعلَ اللّهُ لهما مِن نظامِ السَّير، سير المتبوعِ والتّابع[5].

3) ﴿يَجْرِى﴾: (جري) أصلٌ يدلُّ على انسياحِ شَيءٍ، يُقالُ: جرى الماءُ يجري جريةً وجَرْيًا وجَرَيانًا[6]، وهو "انتقالٌ بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متَّصلة"[7]، والجَرْيُ: المرُّ السَّريع[8]، وجَرَى الماءُ سالَ مندفعًا، خِلافُ وقَفَ، وسَكَنَ، وجرَتِ السَّفينةُ ونحوُها: سارَتْ، وانتقلَتْ من مكانٍ إلى آخر[9]، والجاريَةُ: الشَّمسُ، سُمّيَتْ بذلِكَ؛ لجَرْيِها من القُطْرِ إلى القُطْرِ[10]، ومعنى ﴿يَجْرِى﴾ في الآيةِ موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: السَّيرُ السَّريع[11].

4) ﴿لِأَجَلٍ﴾: الأجَلُ: غايةُ الوقت[12]، وهو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء، ويقالُ للمدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسان: أجلٌ، فيُقال: دنا أجلُهُ، عبارة عن دنوِّ الموت، وأصله: استيفاءُ الأجلِ، أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كور)، وابن جرير، جامع البيان: 21/ 254، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كور).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سخر).
(4) الراغب، المفردات: (سخر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جرى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جرى).
(8) الراغب، المفردات: (جري).
(9) الفيّومي، المصباح المنير، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جري).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (جري).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).

مدَّة الحياة[1]، فأجَلُ الشَّيْءِ: مُدَّتُهُ ووَقْتُهُ الَّذي يَحِلُّ فيهِ، والأجلُ: هو وقتٌ يُحدَّدُ لانتهاءِ الشَّيء أو حلوله[2]، ومعنى الأجلِ في الآية: هو أجلُ فناء الدُّنيا، والمعنى: كلٌّ يسيرُ لمُنتهى دوره، أو لمنقطعِ حركته[3].

5) ﴿مُّسَمًّى﴾: اسمُ مفعولٍ مِنَ الفعل المزيدِ (سمّى)، وجذره اللُّغويُّ (سمو)، وأصله يدلُّ على العُلوِّ والارتفاع، والمعنى المحوريُّ له: ارتفاعُ الشَّيءِ أو شخوصه ملتئمًا ظاهره وأعلاه على ما تحته، يُقال: سما بَصَرُهُ: علا، وسما كلِّ شيء شَخْصُهُ، ومنه الاسْمُ، وهو ما يعرفُ به ذاتُ الشَّيء[4]، والاسمُ: اللَّفْظُ المَوْضوعُ على الجَوْهَرِ أو العَرَضِ للتَّمييزِ، أي: ليفْصلَ بِهِ بعضَهُ عَن بعضٍ[5]، والمسمّى في الآية صفةٌ للأجلِ، وهو المجعولُ له وسمٌ، أي: ما به يُعيّن، وهو ما عيَّنه اللّهُ لأنْ يبلغ إليه[6].

6) ﴿ٱلْغَفَّارُ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على السَّترِ، والغُفرانُ والغَفرُ: السَّترُ، يُقالُ: غَفَرَ اللّه ذَنبَهُ غَفرًا ومَغفرةً وغُفرانًا[7]، والمغفرةُ مِن اللّهِ: أن يصونَ العبدَ مِن أن يَمَسَّهُ العذابُ[8]، والغَفورُ والغَفّارُ مِن أسماءِ اللّهِ جَلَّ ثَناؤُهُ، وهما مِن أبنيةِ المُبالَغَةِ، ومعناهما السّاتِرُ لذُنوبِ عِبادِهِ، المُتَجاوِزُ عن خَطاياهُم وذُنوبِهِم[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ اللّه الواحدُ القَهّارُ سُبحانَه مظاهرَ وحدانيَّته وقدرته، فيُخبرُ أنَّه خَلَق السَّماواتِ والأرضَ بالأمرِ الثّابتِ والحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ، خَلقًا تامًّا مُتقَنًا، لا خيالَ فيه ولا سِحرَ، ولا اختلالَ ولا عَيبَ ولا نَقصَ؛ خَلقًا دالًّا على وحدانيَّته وقَهْرِه لكُلِّ شَيءٍ، ﷻ، وأنَّه يُغشي اللَّيلَ النَّهارَ، ويُديرُه عليه حتَّى يَذهَبَ ضَوؤُه، ويُغشي النَّهارَ اللَّيلَ، ويُديرُه عليه، حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه، كأنَّه يلفُّ كلَّ واحدٍ منهما على الآخر لفَّ اللِّباس باللّابس، أو يغيِّبه به، كما يغيبُ

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أجل).
(2) الفيومي، المصباح المنير، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أجل).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 37، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو)، والراغب، المفردات: (سما)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سمو).
(5) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (سمو).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(8) الراغب، المفردات: (غفر).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).

الملفوفُ باللِّفافة، أو يجعله كارًّا عليه كرورًا متتابعًا تتابُعَ أكوارِ العمامة، وذلَّل سُبحانَه الشَّمسَ والقَمَرَ، وكُلٌّ واحدٍ منهما يَسيرُ سَريعًا لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ، ألا إنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ هذه المخلوقاتِ، وسَخَّرها لِعبادِه هو شديدُ القوَّةِ، الغالبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغَفّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[1].

دلائـلُ كـونيَّةٌ فلكيَّةٌ وأرضيَّةٌ لإثباتِ الإلهيَّة للواحدِ القهار

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآيةِ عمّا قبلها:

جاءتْ جملةُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ بيانًا للجملةِ الَّتي قبلها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، ولذا فصلهما، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ إذ بينهما كمالُ اتِّصال؛ فإنَّ خَلْقَ هذه العوالم والتَّصرُّفَ فيها على شدَّتها وعظمتها يبيِّن معنى الوحدانيَّة ومعنى القهّاريَّة، فتكون جملةُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ذاتَ اتِّصالين اتِّصالٍ بجملة: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ﴾ كاتِّصال التَّذييل، واتِّصال بجملة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ - الَّتي جاءَتْ تفصيلًا لبعض أفعالِه تعالى الدالَّةِ على تفرُّدِه[2] - اتِّصالَ التَّمهيد[3].

تفصيلٌ لبعضِ أفعـالِه تعالى الدّالَّة على تفرُّدِه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَلَقَ﴾، وإشارة المضيِّ فيه:

التَّعبيرُ بالخلقِ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لكونِ لفظِ الخلق - وهو تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[4]، أي: إبداعُ الشَّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ - أنسبَ مع السّياقِ الَّذي يتحدَّثُ عن خلقِ السَّمواتِ والأرض، وهي أجرامٌ خلقها اللهُ من عدمٍ على مثالٍ لم يُسبق إليه، وذلك في سياق الاستدلالِ على ألوهيَّته سبحانه ووحدانيَّته وقدرته وقهره.

إبداعُ الشَّيء من غـيرِ أصـلٍ ولا احتذاء أدلُّ على القدرةِ الإلهيَّة

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 37.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).

تحقُّقُ وقوعِ الخلقِ بموجوداته السَّماوية والأرضيَّة دليلٌ مشاهدٌ

والتَّعبيرُ عن خلقِهِ سبحانه للسَّمواتِ والأرضِ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على وقوعِ هذا الخَلقِ منه سبحانه وتحقُّقه بموجوداتِهِ وأجرامه السَّماوية شمسًا وقمرًا وسماءً، ومخلوقاته الأرضيَّة أرضًا وجبالًا وسهولًا وبحارًا وأنهارًا، وتحقُّق وقوع الخَلق منه سبحانه أدلُّ على كمالِ قدرته وألوهيَّته؛ فهو مشاهَدٌ لهم، ولهذا كثرتِ الآياتُ الَّتي تأمرهم بالنَّظرِ والتَّأمُّل في ملكوتهما.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

تكاملُ خلقِ السَّماوات والأرض واتِّصالُ منافعهما دليلٌ على كمالِ قدرةِ منشئهما

الواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1]، والجمعُ بين السَّماوات والأرض لقصدِ التَّعميم؛ إذ هما محلُّ الموجودات الخارجيَّة، أي: خلْقُ اللهِ سبحانه وإبداعُه لِما خلق من العدم يعمُّ السَّماواتِ والأرض وما بينهما، بما يدلُّ على تمامِ قدرةِ الله، وأنَّه المنفردُ بالخلق؛ إذ لا يستطيعُ شركاؤُهم خَلْقَ العوالم[2]، وصحَّ عطفُ الأرضِ على السَّماوات، مع أنَّ السَّماوات جمعٌ، والأرضَ مفردٌ؛ لأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ جنسهما، فهو عطفُ جنسٍ على جنسٍ.

كما أنَّ في الجمع إشارةً إلى أنَّ منافعَ السَّماء متَّصلة بمنافعِ الأرض على بعد ما بينهما؛ ليعلمَ أنَّ منشئهما واحدٌ؛ إذ لو كان عددًا؛ لامتنعَ ذلك؛ إذ المعروفُ مِنَ عادةِ الملوك انفرادُ كلٍّ بملكه وسلطانه، والاستعلاءُ على ما استولى، وقبضُ برأسِ الآخر، ونفاذُ أمره في سلطانه، فإنْ لم يمتنعْ ذلك؛ دلَّ على أنَّه فعلُ واحدٍ[3].

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

باء ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ للملابسة، أي: خلقَ السَّماوات والأرضِ وما بينهما من الموجوداتِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 658.

خلقًا ملابسًا للحقِّ، أي: للأمر الثّابت الذي ليس بخيال ولا سحر، على وجهٍ لا نقص فيه بوجه، ولا تفاوت ولا خلل[1]، ولا عبَثَ، أي: خَلَقَهما خَلْقًا ملابسًا للحكمة والصَّواب والنَّفع، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدُّخان: 38 - 39][2].

خلقُ السَّماواتِ والأرض ملابسٌ لـلـحـكـمـةِ والصَّوابِ والنَّفعِ

وفي هذا كلِّه تنزيهٌ لأفعالِ اللهِ عن أيِّ نقصٍ أو خللٍ أو فسادٍ أو عبثيَّة، ومِن ثَمَّ فيه بيانٌ لعظمةِ خلقِ الله وكمالِ قدرتِه وشمولِ علمه وإتقانِ صنعته بما يستلزم تفرُّده بالإلهيَّة، والردُّ على مَن نسبَ له الشُّركاء.

ويمكن أنْ تكون الباءُ سببيَّةً بمعنى التَّعليل، أي: للحقِّ، وهو البعث، فلو لم يكن البعثُ؛ لكانَ خلقُهما عبثًا باطلًا على ما ذكر في آية أخرى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115][3]، أو المعنى: خلقَ السَّمواتِ والأرض لأجلِ إقامته للحقِّ[4].

معنى (ال) في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، ودلالة التَّعبير به:

خلقُ السَّموات والأرض لا تنفكُّ عنه الحكمةُ والصَّوابُ والنفع

(ال) التَّعريف في لفظ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ جنسيَّةٌ، أي: المقصودُ جنسُ الحقِّ، وهو الشَّيءُ الثّابتُ الذي لا يتغيَّر، وهو واسعُ الدَّلالة، فيُفسَّر بالصِّدق (المطابق لما وقع)، وبالصَّحيح الصَّواب (ضدَّ الباطل الزائف)، ويُفسَّر بالعدل، ويأتي بمعنى: ثبتَ، ووجب[5]، وكلُّ هذه الألفاظ ممّا يُفسَّر به الحقُّ يرجعُ إلى معنى الثَّبات.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 657.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 493.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).

وتعريفُهُ يدلُّ على التَّخصيصِ والتَّعيين لما تناولَتْهُ الآية الكريمة، وهو أنَّ خَلْقَ السَّموات والأرض - خلقًا ملابسًا للحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفع - دليلٌ على وحدانيَّة اللّه، وأنَّه المتفرِّدُ بذلك، فلا عبثَ ولا باطلَ ولا ضررَ في هذا الحقِّ العظيم، وليس آلهةَ الكفّار المزعومة، وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين لم يهتدوا لِما في ذلك الخلقِ من الحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ، وقد نسبوا للّهِ الشُّركاء.

عِلَّةُ فصلِ الآية عمّا قبلها:

بيانٌ لكيفيَّةِ تصرُّفِهِ تعالى في السَّماواتِ والأرض بعد بيانِ خلقِهما

جملة ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ﴾ بيانٌ ثانٍ للجملةِ الَّتي قبلها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، أي: بيانٌ لِكيفيَّةِ تصرُّفه تعالى فيهما بعد بيانِ خلقِهما، فإنَّ حدوثَ اللَّيلِ والنَّهارِ في الأرض منوطٌ بتحريك السَّماواتِ، أي: يغشى كلُّ واحدٍ منُهما الآخَرَ[1]، وهو كتعدادِ الجمل في مقامِ الاستدلال أو الامتنان، أي: فُصِلتْ عمّا قبلها لِما بينهما من كمالِ اتِّصال[2].

دلالةُ التَّعبير بالتَّكوير في الفعل ﴿يُكَوِّرُ﴾:

في التَّكويرِ إشارةٌ إلى كرويَّةِ الأرض وهذا من إعجازِ القرآن

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظ التَّكوير للإشارة إلى معجزةٍ علميَّةٍ تزيدُ الاستعارة فيها إبداعًا، وذلك أنَّ مادَّة التَّكوير آتيةٌ من اسم الكُرة، وهي الجسمُ المستدير من جميعِ جهاته على التَّساوي، والأرضُ كُرويَّةُ الشَّكل في الواقع، وذلك كان يجهله العربُ وجمهورُ البشر يومئذٍ، فأشارَ القرآنُ إلى كرويَّةِ الأرض بوصفِ العَرَضَيْنِ اللَّذَين يعتريانها على التَّعاقب، وهما النّور والظُّلمة، أو اللَّيل والنَّهار؛ إذ جعلَ تعاقبهما تكويرًا؛ لأنَّ عَرَضَ الكُرةِ يكون كُرويًّا، تبعًا لذاتها، فالتَّكويرُ لا يكون إلّا للشَّيء الدّائريِّ، وكذلك آثرَ التَّعبيرَ بالتَّكوير دونَ الغشيان؛ مراعاةً للسّياق في الآية، وهو الاستدلالُ على الإلهيَّة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.

الحقِّ بإنشاءِ السَّماوات والأرض، ولذا اختيرَ التَّكوير للاستدلال على ما يتبع ذلك الإنشاء مِن خَلْقِ العَرَضَيْنِ العَظيمَيْنِ للأرض[1].

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿يُكَوِّرُ﴾:

تكويرُ اللَّيلِ والنَّهار متجدِّدٌ متكرِّرٌ مَرَّةً بعد مَرَّةٍ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يُكَوِّرُ﴾؛ للدَّلالة على تجَدُّدِ التَّكوير، وتكراره مَرَّةً بعد مَرَّةٍ[2]، في كلِّ يوم وليلةٍ، والمعنى: يلفُّ، ويلوي، ويديرُ، فيغطّي مع السُّرعة والعلوِّ والغلبة تكويرًا كثيرًا متجدِّدًا مستمرًّا إلى أجلِه، فيسترُ أحدُهما الآخرَ، فلا يدعُ له أثرًا[3]، أو لاستحضارِ حالةِ التَّكويرِ تبعًا لاستحضارِ آثارها، فإنَّ حالةَ تكويرِ اللهِ اللَّيلَ على النَّهارِ غيرُ مشاهدة، وإنَّما المشاهدُ أثرها، وتجدُّدُ الأثرِ يدلُّ على تجدُّد التَّأثير[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في الفعل ﴿يُكَوِّرُ﴾:

تكويرُ اللَّيلِ والنَّهار خِلْفَةً أو تغييبًا أو تعاقبًا كرورًا ومرورًا

التَّكويرُ حَقيقَتُهُ: اللَّفُّ واللَّيُّ، ودَورٌ وتَجَمُّعٌ، وكَور العمامة: دَورُها[5]، وكَوَّرَ العِمامَةَ على رَأسِه؛ إذا لواها، ولَفَّها، ولذا فإنَّ قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ استعارةٌ له من عدَّة أوجه:

الأوَّل: أن يكونَ اللَّيلُ والنَّهار خِلْفَةً، يذهبُ هذا، ويغشى مكانه هذا، وإذا غشيَ مكانه؛ فكأنَّما ألبسه، ولفَّ عليه كما يلفُّ اللَّباسُ على اللّابس، أي: جعلَ غشيان اللَّيل والنَّهار أحدهما مكانَ الآخر، وجعله محيطًا بكلِّ ما أحاطَ به الآخر، حتى صار بمنزلةِ لباسٍ بمكانه، بحيث يصيرُ أسودَ مظلمًا بعد ما كان أبيضَ منيرًا، وبالعكس تكويرًا لأحدهما على الآخر، ولفًّا عليه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كور).

الثّاني: كلُّ واحدٍ يغيِّبُ الآخرَ؛ إذا طرأ عليه، فشُبِّه في تغييبهِ إيّاه بشيءٍ ظاهرٍ لُفَّ عليهِ ماغيَّبه عن مطامحِ الأبصار، أي: شبَّه تغييبَ أحدِهما الآخرَ عند طريانه عليه بلفٍّ ساتر على الظّاهر؛ ليخفى بعد الظُّهور، وهو معنى تكويره عليه.

الثالث: أنَّ هذا يكرُّ على هذا كرورًا متتابعًا، يشبهُ تتابعَ أكوارِ العمامةِ، وهذا تمثيلٌ بديعٌ وجهه منتزعٌ من عدَّة أمور، وقابلٌ للتَّجزئة بأنْ تُشبَّهَ الأرضُ بالرَّأس، ويُشبَّهَ تعاورُ اللَّيل والنَّهار عليها بلفٍّ طيّات العمامة[1]، أي: كرَّ هذا على ذاك وبالعكس، على سبيلِ التَّتابع والتَّلافِّ كما في العمامة، وهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ إذ مُثِّلَتْ به هيئةُ غَشَيانِ اللَّيل على النَّهار في جزء من سطح الأرض، وعَكْسُ ذَلِكَ عَلَى التَّعاقُبِ والتَّرتيب المتتابع شيئًا فشيئًا على الكرة الأرضيَّة بهيئة كوْرِ العمامة؛ إذ تُغشي الليَّةُ جزءًا مِنَ الرَّأس، كما تُغشي الليَّةُ الليَّةَ الَّتي قبلَها[2].

البيان يقرب الصورة من الأذهان

ومِنَ اللَّطائف والفوائد البلاغيَّة في هذه الاستعارة أنَّها قرَّبتْ لأذهانِ المخاطَبين بالقرآن حين نزولهِ تلكَ النَّظريَّة العلميَّة العظيمة للأرض وأحوالها؛ إذ كان من الصَّعبِ على العربيِّ الَّذي نزلَ القرآنُ بلغته أنْ يستوعبَ نظريَّةَ كرويَّةِ الأرض ودورانها في ذلك الحين، ولكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ المعجز قرَّبَ تلكَ النَّظريَّة إلى أفهامِ المخاطَبين باستخدام لفظٍ يصوِّر لأذهانهم تلكَ الحقيقة، بتمثيلها بتكويرِ عمائمهم الَّتي لا يفارقونها، ولا يتخلَّون عنها[3].

والمقصودُ في الكلِّ واحدٌ، وهو التَّشبيهُ في الفعلِ على سبيلِ الاستعارة التَّبعيَّة، استعارة محسوسٍ لمحسوس، والاحتمالُ واردٌ في الجميعِ بالتبعيَّةِ والمكنيَّة والتَّخييليَّة والتمثيليَّة[4].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 114 - 115، وزاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 227 - 228، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 180.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.

(3) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 388.

(4) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 386.

معنى (ال) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

(ال) التَّعريف في لفظَي ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ جنسيَّةٌ، تعمُّ، وتشملُ جِنْسَ اللَّيلِ والنَّهارِ، أي: كلَّ ليلٍ ونهار، فلا يقتصرُ التَّكوير على ليلٍ معهودٍ دون ليلٍ، أو نهارٍ معهودٍ دون نهار، وهذا يدلُّ على تمامِ قدرتِهِ سبحانه في سُنَّةِ تعاقبِ اللَّيلِ والنَّهار.

شمولُ التَّكوير كلَّ ليلٍ ونهارٍ دليلٌ على تمامِ قدرةِ اللهِ تعالى

معنى ﴿عَلَى﴾ في: ﴿عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ و﴿عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾:

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ للاستعلاء، وهذا الاستعلاءُ يدلُّ على تمكُّنِ تكويرِ كلٍّ مِن اللَّيلِ والنَّهار على الآخر، والمعنى: يلفُّ، ويلوي، ويديرُ، فيغطّي مع السُّرعة والعلوِّ والغلبة اللَّيلَ عاليًا تكويره وتغطيته على النَّهار، والنَّهارَ عاليًا تكويره وتغطيته على اللَّيل، بأنْ يسترَهُ به، فلا يدعُ له أثرًا[1]، وهذا الاستعلاءُ والتَّمكينُ يشيرُ إلى كمالِ قُدْرَتِهِ تَعالَى.

الاستعلاءُ إيذانٌ بتمكُّن تكويرِ كلٍّ مِنَ المُكوِّرين على الآخر

معنى (الواو) في: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾، وهو من عطفِ الجزءِ المقصودِ من الخبر[2]، أي: في عطفِهِ يكتملُ الخبرَ، وهذا تَتميمٌ لإظهارِ كمالِ صَلاحيَّةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهار، وفي هذه السُّنَّةِ الكونيَّةِ - الَّتي يتغلَّبُ فيها الظَّلامُ على النّورِ حينًا، ويتغلَّبُ النّورُ على الظَّلامِ حينًا آخر - دلالةٌ على أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يكون مغلوبًا مقهورًا، ولا بدَّ من غالبٍ قاهرٍ لهما يكونان تحتَ تدبيره وقهره، وهو اللهُ تعالى[3]، وفيها كذلك إشارةٌ إلى سُنَّةِ تعاقبِ الحقِّ والباطلِ،

في العطفِ تتميمٌ يُظهرُ كمالَ القدرةِ الإلهيَّةِ في الكونِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.

فينتصرُ الباطلُ على الحقِّ حينًا، وينتصرُ الحقُّ على الباطلِ حينًا آخرَ إلى أنْ تقومَ السّاعة التي يتحقَّقُ فيها العدلُ المطلقُ.

كما أنَّ في العطفِ إشارةً أيضًا إلى أنَّ منافعَ اللَّيلِ متَّصلةٌ بمنافع النَّهار، ومنافعُ النَّهارِ متَّصلةٌ بمنافعِ اللَّيلِ على اختلافهما وتناقضِهما وتضادِّهما؛ ليُعلم أنَّهما فعلُ واحدٍ أحدٍ سبحانه[1].

نكتةُ تقديم تكوير اللَّيل على تكوير النَّهار:

اللَّيلُ مقدَّمٌ على النَّهارِ باعتبارِ النَّهارِ منسلخًا منه

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ تكويرَ اللَّيلِ على تكويرِ النَّهارِ في الذِّكر؛ مراعاةً للسَّبقِ في الإيجاد، فإنَّ الظُّلمةَ سابقةٌ للضّياء، واللَّيلُ إنَّما هو ظلمةٌ[2]، واللَّيلُ مقدَّمٌ على النَّهارِ باعتبارِ النَّهارِ منسلخًا منه، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37].

بلاغةُ الإطنابِ في الآية:

استقلالُ كلٍّ من التَّكويرين أدلُّ على كمالِ قدرةِ الله

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن أنْ يقولَ: (يكوِّرُ أحد المَلَوَين على الآخرِ) - رغم أنَّه أخْصَرُ - إلى الإطناب بذكرِ تكويرِ اللَّيلِ على النَّهارِ وتكوير النَّهارِ على اللَّيلِ؛ للإشارةِ إلى استقلالِ كلٍّ منهما في الدَّلالةِ على كمالِ قدرةِ الله الدالَّةِ على ألوهيَّته سبحانه، كما أنَّه أطنبَ بإعادةِ العامل ﴿يُكَوِّرُ﴾، فلمْ يقل: (يكوِّر اللَّيلَ على النَّهار والنَّهارَ على اللَّيل) مع كونه أخصرَ كذلك؛ للدَّلالة على عظمةِ هذا الصُّنع[3]، أي: هذا الفعل، وهو فعلُ التَّكويرِ.

معنى (الواو) في: ﴿وَسَخَّرَ﴾:

تكويرُ أحدِ المَلَوَين على الآخرِ مِن آثارِ تسخيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ عاطفةٌ، عطَفتِ الجُملةَ على قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾؛ لأنَّ ذلك التَّسخيرَ مُناسِبٌ لِتكويرِ اللَّيلِ على النَّهارِ وعَكسِه،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 657.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 453.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.

فإنَّ ذلك التَّكويرَ مِن آثارِ ذلك التَّسخيرِ، "فإنَّ الشَّمسَ سلطانُ النَّهار، والقمرَ سلطانُ اللَّيل، وأكثرُ مصالحِ هذا العالم مربوطةٌ بهما"[1]، فتلك المُناسَبةُ اقتَضَتْ عَطفَ الجُملةِ الَّتي تَضَمَّنَتْهُ على الجُملةِ الَّتي قَبْلَها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(سخّر)، وإشارة المضيِّ فيه:

التَّسخيرُ لآيتين عظيمتين يدلُّ على وحدانيَّةِ المسخِّر وقاهريَّته

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ التَّسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ دون غيرها من الألفاظ، كأمَرَ، أو جعل، أو ذلَّلَ؛ للإيحاءِ بالقوَّة والعظمة، وخاصَّةً أنَّ التَّسخيرَ لآيتين عظيمتين هما الشَّمسُ والقمر، بما يرسمُ مشهدًا عظيمًا فيه منافع جليلة لعموم المخلوقات، ومثل هذه المنافع مجتمعة تقْصُر في أدائها لفظةَ أمَرَ، أو جعل، أو غير ذلك[3]، وهذا يناسبُ السّياق الَّذي يؤكِّدُ على عظمة الله واستحقاقه للوحدانيَّة والقاهريَّة، ولهذا كلِّه ناسبَ استعمال لفظ التَّسخير الذي يدلُّ على عظمة المُسخِّر سبحانه، وضعفِ المسخَّرِ وذلَّتِه؛ إذ أصلُ التَّسخير يَدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، وانقيادٍ بيُسر مع عدم مقاومة، وهو سياقةٌ إلى الغَرضِ المُختصِّ قَهْرًا"[4]، والمعنى: ذلَّلَ، وأكرهَ، وقهرَ، وكلَّفَ لِما يريد من غير نفعٍ للمسخِّر (الشمس والقمر)[5].

التَّسخيرُ محقَّقٌ مشاهدٌ على منهاجٍ معلومٍ وحدٍّ محدود

وقد جاء لفظُ التَّسخير بصيغة الماضي (سخّر)؛ للدَّلالة على وقوعِ التَّسخير وتحقُّقه على منهاجٍ معلومٍ لا يتعدّاه، وحدٍّ محدودٍ لا يتخطّاه، وهذا التَّسخيرُ محقَّقٌ دائمٌ مستمرٌّ مشاهَدٌ لكلِّ عاقل[6]، أي: سخَّرهما اللهُ منذ خلقهما، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

(1) ابن عادل، اللباب: 16/ 473.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(3) الدبل، النظم القرآني في سورة الرعد، ص: 68.
(4) الرّاغب، المفردات: (سخر).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 453.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 130، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 453.

وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: 11]، أي: لتسخيرِ أمرٍ لا تعدُّدَ فيه ولا تجدُّد، وإنَّما التَّعدُّدُ والتَّجدُّد في آثاره[1]، وهذا بخلاف التَّكوير الَّذي جاء بصيغة المضارع؛ لأنَّه يتجدَّدُ كلَّ لحظة[2].

نكتةُ حذفِ المتعلّق في: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾:

حُذِفَ متعلِّقُ قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ إذ التَّقدير: (وسخَّرَ لكم الشَّمسَ والقمر) لظهوره، ولكون حذفِهِ أنسبَ للسّياق، وهو التَّركيزُ على إظهارِ الآياتِ الدّالَّة على وحدانيَّةِ اللّه وقاهريَّته، بخلاف قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: 20]، فإنَّها في سياقِ تَعدادِ النِّعَمِ على الإنسان، فناسبَ ذلك إظهار لفظ (لكم).

تركيزٌ على إظهارِ الآيـاتِ الـدّالَّـة عـلى وحـدانيَّـةِ اللهِ وقاهريَّته

معنى (ال) في ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ و﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ ونكتة إفرادهما:

(ال) التَّعريف في قوله: ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ و﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ عهديَّةٌ، لتحديدِ الشَّيء المسخَّر من قِبَل الله سبحانه، ممّا يعني: أنَّ الحديث هنا يتعلَّق بالشَّمس والقمر المعروفَين، وهما الجرمان السَّماويّان اللَّذانِ يعرفهما الجميع، وهذا التَّخصيص يُعزِّز من فهم المعنى المقصود، ويُشير إلى أهمّيَّة هذين الجرمين في الكون، وتُظهرُ (ال) التَّعريف في سياقِ الآية قدرةَ الله تعالى على تسخيرِ هذه الكائنات العظيمة لخدمةِ الإنسان ولتيسيرِ حياته، فالتَّسخيرُ هنا يُعبِّر عن السَّيطرةِ الإلهيَّة على هذه الظواهر الطبيعيَّة.

في ذكرِ الشَّمسِ والـقـمـرِ المعهودَين تذكيرٌ بمنافعهما

وفي إفرادهما زيادةٌ في تحديدهما وتخصيصِهما، وإبرازٌ لأهمّيَّة كلٍّ منهما بشكلٍ منفصل، فكلٌّ منهما له دورهُ الفريدُ في النِّظام الكونيِّ، وإظهارٌ للقدرةِ الإلهيَّة على تسخيرِ كلٍّ منهما بشكل خاصٍّ، بما يُظهرُ عظمةَ الله في خلقِهِ وقدرتِهِ عليها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 76.
(2) السامرائي، لمسات بيانية: 9/ 198.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾:

مُسَخِّرُ الشَّمس والقمر واحدٌ عالِمٌ مدبِّرٌ

الواو في قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه: ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ بجامعِ اشتراكهما في التَّسخير للخلقِ من قِبَل الله سبحانه بما ينفعُ الإنسان، وجريانهما على سيرٍ واحدٍ منذُ كانا إلى آخرِ ما يكونان، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مُنشئهما واحدٌ، عالمٌ، مدبِّرٌ، عرَفَ حاجةَ الخلقِ إليهما، ومنافعهم بذلك[1].

بلاغةُ تقديمِ ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾:

تقديمُ الأصلِ والأعظمِ والأعجبِ مع مراعاةِ بديعِ المطابقة

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ من باب تقديم الأصلِ على الفرع، فالشَّمسُ هي الأصلُ بضيائها ومنافعها، ومن بابِ تقديم الأشرفِ بالفضيلة[2]، فهي أسنى وأسمى مكانةً ومكانًا[3]، ولأنَّ الشَّمسَ لَمّا كانت أكبرَ وأعظمَ؛ كانت أعجبَ، والنَّفسُ تطلبُ سببَ الأمرِ العجيبِ أكثرَ ممّا تطلبُ سببَ الأمرِ الذي لا يكون عجيبًا[4]، ولأنَّ تقديمَ الشَّمسِ هو عادةُ القرآنِ الكريم، وكذلك لمراعاةِ المطابقةِ في التَّرتيب، فاللَّيلُ يُطابقُ الشَّمسَ، والنَّهارُ يُطابقُ القمرَ[5].

بلاغةُ الطِّباق في الآية:

تصوُّرُ قدرةِ اللهِ سبحانه في أكملِ صورها وأوسعِ معانيها

جاءتِ المطابقةُ بين السَّماوات والأرض، وبين اللَّيلِ والنَّهار، وبين الشَّمسِ والقمر في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ لتصوِّرَ قدرةَ الله سبحانه في أكملِ صورها وأوسعِ معانيها، بقدرته على الخلق، والتَّصرُّفِ المطلق، والإنعامِ الكامل، والسُّلطانِ الشّامل،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 658.
(2) الزركشي، البرهان: 3/ 259.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 377.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 130.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 377.

ذلك أنَّ مِن أسرارِ بلاغةِ المطابقة تداعي المعاني، فالضِّدُّ يجلبُ إلى الذِّهن مُقابِله، أي: إنَّ الطِّباقَ بين المذكوراتِ في الآية يجعلُ المخاطَبَ يتصوَّرُ كمالَ قدرةِ الله، وشمولَ تصرُّفِهِ المطلق، بأنْ يلفتَ ذهنَ المخاطَب إلى أنَّ دلائلَ وحدانيَّة الله وإلهيَّتِه محيطةٌ بالمخاطَبِ مِن كلِّ جانبٍ وفي كلِّ الأحوال، وهذا أقوى أثرًا في المخاطَب؛ لكي يقتنعَ بتفرُّدِ الله بالعبادةِ الخالصة، وأنَّه المستحقُّ الوحيدُ لها، ولكي يرتدعَ عن شركِهِ باتِّخاذ الأولياء، وهذا يحقِّقُ غرضَ الآية، وهو التَّدليلُ على وجوبِ إفرادِ الله بالعبادة الخالصةِ له وحده لا شريكَ له، والرَّدُّ على المشركين في اتِّخاذهم الأولياء من دون الله، وافترائهم على اللهِ بأنَّ له ولدًا.

علَّةُ فصل جملة: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾:

في حركةِ الكونِ بيانٌ لِكَيفيَّةِ تَسخيرِ الشَّمسِ والقمر

فَصَل البيانُ الإلهيُّ بين جملة: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾، والتي قبلها: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾، ولم يأتِ بالعاطف، لِما بينَهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ بسببِ كون قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ بيانًا لِكَيفيَّةِ تَسخيرِ الشَّمس والقمر، أيْ: كُلٌّ منهما يَجري لِمُنتَهى دَورَتِه، أو مُنقَطَعِ حَرَكَتِه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكلِّيَّة في جملة ﴿كُلٌّ يَجۡرِي﴾:

عمومٌ يناسبُ كمالَ قدرةِ اللهِ وعظيمِ ملكِه، ويدلُّ على وحدانيَّته وقاهريَّته

عَبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿كُلٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ للدَّلالة على الإحاطةِ والشُّمولِ لكلِّ ما أُضيف إليها، وهذه الإحاطةُ تتناسبُ مع كمالِ قدرة اللهِ وعظيم ملكِه، بما يدلُّ على أنَّه الواحدُ القهّار، وتدعو القارئ أو السّامع للتَّفكُّر في عظمةِ الخالق وقدرته على تنظيم كلِّ ما في الوجود، ويُشجِّعُ على التَّأمُّلِ في كيفيَّة جريانِ كلِّ شيءٍ وفقًا لأجلٍ مسمًّى، كما أنَّ ما تتضمَّنه من إبهامٍ يتعيَّن بالمضاف إليه له أثرٌ تشويقيٌّ، كما أنَّ في هذا العموم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.

إشارةً وتنبيهًا للسّامع إلى أنَّه داخلٌ في ذلك العموم، فكما أنَّ تلكَ المخلوقات تجري لأجلٍ مسمًّى، فإنَّك أيُّها السّامع أيضًا سائرٌ إلى أجلٍ معلوم محدَّدٍ عند اللّه[1]، ما يزرعُ في نفسِهِ الخوفَ مِن خالِقِه الَّذي سيرجع إليه، ويقوّي هذا المعنى ختْمُ الآية بذكرِ اسم ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾؛ لكونه يناسبُ ذِكْرَ المكلَّفين من بني البشر، الدّاخلين في هذا العموم، وبذكر اسم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ لكونه يناسبُ ذِكْرَ المخلوقات غيرِ المكلَّفة من الشَّمسِ والقمر، فهي لا تُذنبُ حتّى يَغفرَ لها اللّهُ.

لطيفةُ الحذفِ في قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ﴾:

حُذِفَ المضاف إليه في ﴿كُلٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾، وعوِّضَ عنه بالتَّنوين، والتَّقدير: كلُّ ذلك، أو كلُّ واحدٍ يجري لأجلٍ مسمًّى[2]، والغرضُ البلاغيُّ للحذفِ – إضافةً إلى الإيجاز والاختصار – زيادةُ المعنى العامِّ الذي أفادته ﴿كُلٌّ﴾ شمولًا آخرَ، يفيدُ الاستغراقَ الشّاملَ للعددِ وللكيفيَّة[3]، كما أنَّ حذفَ المضاف إليه وتنوين ﴿كُلٌّ﴾ يشعرُ بالفخامةِ والعظمةِ الَّتي يوحي بها التَّنوين، وهذه الفخامةُ والعظمةُ تتناسبُ مع سياقِ الآية، ومقتضى المقامِ الذي يؤكِّدُ عظمةَ اللّهِ في الخلق والتَّدبير.

إيجازٌ في اللَّفظِ واتِّساعٌ في المعنى

دلالةُ التَّعبيرِ بالجري في الفعل ﴿يَجْرِى﴾:

التَّعبيرُ بالجري دون الحركةِ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾؛ للدَّلالة على إتقانِ صنع اللّه سبحانه في جريانِ هذه الكواكبِ مِن الشَّمسِ والقمر والأرض، بما يدلُّ على كمالِ قدرته سبحانه؛ لأنَّ الجريَ ليس مجرَّدَ الحركةِ الَّتي تقابلُ السُّكون، وإنَّما هو حركةٌ خاصَّةٌ سريعةٌ مسترسلةٌ متَّصلةٌ في زمنٍ معلومٍ ونظامٍ

حركةٌ فلكيَّةٌ خاصَّةٌ في زمنٍ معلومٍ ونظامٍ محدَّدٍ يدلُّ على كمالِ القدرة

(1) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 307.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 160، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 454، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.

(3) عطية، الإيجاز، ص: 357.

محدَّد، أي: متقنةٌ، لا حركةٌ عشوائيَّةٌ، كما يدلُّ عليه معنى الجري في اللُّغة[1]، والمعنى: كلٌّ مِنَ الشَّمسِ والقمرِ والأرضِ يجري بحسبِ حركته الخاصَّة وحركته القسريَّة على المداراتِ اليوميَّةِ المتخالفةِ المتعدِّدةِ حسب تعدُّدِ الأيّامِ جريًا مستمرًّا[2].

دلالةُ صَوغِ الفعل ﴿يَجْرِى﴾ مضارعًا:

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَجْرِى﴾؛ للدَّلالةِ على كونِ جريان هذه الأفلاكِ مستمرًّا في كلِّ حين، ممّا يوحي بأنَّ كلَّ شيءٍ في الكونِ مستمرٌّ في حركته وجريانِه، وهذا يعكسُ نظامًا كونيًّا دقيقًا لا يتوقَّف، كما أنَّ في المضارعةِ إفادةَ تصويرِ حدثِ الجريان، وقد وصلَ إلى الأجل، بما يحفِّزُ القارئَ أو السّامع على التَّفكيرِ في حركةِ الكون وأهدافها، ممّا يدعو إلى التَّأمُّل في عظمةِ الخالق وقدرته.

نظامٌ كونيٌّ دقيقٌ لا يتوقَّفُ يدعو إلى التَّأمُّل في عظمةِ الخالق وقدرته

معنى (اللام) في قوله: ﴿لِأَجَلٍ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿لِأَجَلٍ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ لامَ التَّعليل على ظاهرها، والمعنى: تجري لعلَّةِ أنْ ينتهي جريهما إلى أجَلٍ مسمًّى، وهو أجَلُ فنائهما، فإنَّ جريهما لَمّا كان فيه تقريبُ فنائهما؛ جعلَ جريهما كأنَّه لأجَلِ الأجَلِ، أي: لأجلِ ما يطلبهُ، ويقتضيه أجلُ البقاء[3]، ويجوزُ أنْ تكون اللّامُ بمعنى (إلى)، أي: تجري إلى أجلٍ مسمًّى، وهو قيامُ السّاعة[4]، أو إلى مدَّةٍ محدَّدةٍ عند الله[5].

في العلّيَّةِ وانتهاءِ الغايةِ دلالةٌ على كمالِ قدرةِ الله في خلقِ الأفلاك

وكلٌّ مِن المعنيين يدلُّ على كمالِ قدرةِ الله في خلقِ الأفلاكِ من الشَّمسِ والقمر والأرض.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جرى).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 76.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 254.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 86.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(أجَل) دون (وقت) أو (زمن):

التَّعبيرُ بما يدلُّ على غايةِ الوقتِ تذكيرٌ بالآخرةِ للاستعدادِ لها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الأجل دون الوقت أو الزَّمن في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه وقتٌ يُحدَّدُ لانتهاءِ الشَّيء، أو حلوله[1]، فالأجلُ هو غايةُ الوقتِ[2]، ولذا كان استعمالُهُ هنا أنسبَ للمقامِ، فالمرادُ بالأجلِ في الآية ليس مجرَّد الوقت أو الزَّمن، وإنَّما هو أجلُ فناءِ الشَّمسِ والقمر والأرض، أو أجلُ حياةِ النّاس الذي ينتهي بانتهاءِ الأعمار المختلفة، وليس العمرُ إلّا أوقاتًا محدودةً وأنفاسًا معدودةً تُحسبُ بجري الشَّمسِ والقمر، فصار جريهما كأنَّه لأجل، وفي هذا تذكيرٌ بالآخرةِ للاستعدادِ لها.

دلالةُ التَّعبير بالتَّسمية في الوصْف ﴿مُّسَمًّى﴾:

أجلٌ معروفٌ عند اللهِ له وسْمٌ يُعرفُ به ويتميَّزُ به

عبَّر البيانُ الحكيمُ بلفظ ﴿مُّسَمًّى﴾ في قوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ دون غيره؛ للدَّلالة على أنَّه أجَلٌ معروفٌ مجعولٌ له وسمٌ يُعرف به، ويتميَّز به عن غيره[3]، فالاسْمُ: هو ما يُعرفُ به ذاتُ الشَّيء[4]، وهو هنا يومُ القيامة، أي: أجلُ فناءِ هذه الكواكب، أي: هو وسمٌ للأجلِ، عيَّنه اللهُ لأنْ يُبلغ إليه[5]، وللتَّناسبِ مع المقام، فالبيانُ القرآنيُّ لم يحدِّده بشكلٍ دقيقٍ ومُفصَّلٍ، كما هو معنى المحدَّد في اللُّغة[6]، ولذا لم يقل: لأجلٍ محدَّدٍ.

نكتةُ خلوِّ الجملتين الخبريَّتين من المؤكِّدات:

خلقُ السَّماواتِ والأرضِ وتسخيرُ الشَّمسِ والقمرِ آيتان كونيَّتان لا ينكرهما أحدٌ

خلتِ الجملتانِ الخبريَّتان: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ و﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ من المؤكِّدات؛ لأنَّ جميعَ المخاطَبين معترفون بذلك، مقرّون به حتّى المشركين، وقد أخبرَ سبحانه بذلك

(1) الفيومي، المصباح المنير، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو)، والراغب، المفردات: (سما)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سمو).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(6) الزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حدد).

في سورة الزُّمر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 38].

بلاغةُ تصديرِ الجملة الكريمةِ بأداة الاستفتاح ﴿أَلَا﴾:

إعلانٌ بأنَّه تعالى عزيزٌ في بطشِهِ وانتقامِهِ غفّارٌ لعبادِهِ التّائبين

﴿أَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أداةُ استفتاحٍ مركَّبةٌ من همزةِ الاستفهام وحرفِ النَّفي (لا)؛ لإعطاءِ معنى التَّنبيه على تحقُّقِ ما بعدها، وفي هذا التَّنبيهِ والتَّحقيق إيذانٌ بأهمّيَّة مدلولِ الجملةِ الصَّريح، وهو الإخبارُ بكونِهِ سبحانه العَزيزَ الغالبَ على كلِّ ما سواه، الكثيرَ المغفرةِ لذنوبِ عباده التّائبين إليه توبةً نصوحًا، ومدلولها الكنائي، وهو الوعدُ والوعيد، فإنَّ وصفَ العزيزِ كنايةٌ عن أنَّه يفعلُ ما يشاءُ لا غالبَ له، فلا تجدي المشركين عبادةُ أوليائهم، ووصفُ الغفّار مؤذنٌ باستدعائهم إلى التَّوبةِ باتِّباع الإسلام[1]، وفيه إشارةٌ كذلك إلى كمالِ الاعتناء بمضمونها، وإلى وجوبِ التَّدبُّر فيما اشتملَتْ عليه[2].

نكتةُ تعريفِ الاسمين الجليلَين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾:

الكاملُ في قدرتِهِ ومغفرته يستحقُّ الإيمانَ به والشُّكر له

جاءتِ الصِّفتان ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ مُعَرَّفَتين؛ للدَّلالةِ على التَّعظيم في الشَّأنِ والكمالِ في الوصف، والاختصاصِ بالاسم، فهو سبحانه الكاملُ في قدرتِهِ على كلِّ شيءٍ والكاملُ في مغفرته، بلغَ الغايةَ في الصَّفحِ عن المذنبين مِن عبادِهِ، وفي هذا نعيٌ على الكافرين؛ إذ يُعرضون عن عبادةِ الكاملِ ليعبدوا من دونِهِ أصنامًا عاجزةً لا تجدي عنهم شيئًا.

نكتةُ صوغ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على (الفعيل):

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ جاء بصيغة (فعيل)، وهي من أبنيةِ المبالغةِ؛ لإفادةِ بلوغِ الغايةِ في كمالِ قدرة الله سبحانه، فهو الغالبُ القادر على كلِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 197.

شيءٍ من الأشياء الَّتي من جُملتها عقابُ العُصاةِ[1]، فهو العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، القاهرُ لِكُلِّ شيء، الذي لا يستعصي عليه شيءٌ[2]، وغرضُ المبالغة بيانُ كمال قدرتِه، والتَّنديدُ بالكفر والمعاصي، والتَّحذير منهما[3]، والحثُّ على الإيمان والشُّكر، أي: آمنوا به، واعتزّوا بعزَّته.

في المبالغةِ بيانُ كمالِ قدرةِ الله والتَّحذيرُ مِن الكفرِ به

لطيفةُ صوغِ اسم ﴿ٱلۡغَفَّارُ﴾ على (الفعّال):

﴿ٱلۡغَفَّارُ﴾ صيغةُ مبالغةٍ على وزن (فعّال)، مشتقَّةٌ مِن المصدر (غفران)، وتعني: في الأصل لبس الإنسان لشيءٍ يقيهِ مِن التَّلوُّث، وعندما تستخدمُ بشأنِ الباري، فإنَّها تعني سترَهُ لعيوبِ عباده النّادمين وذنوبِهم، وحفظَهم مِن عذابِهِ وجزائه، فهو المبالغُ في المغفرةِ، ولذلك فهو مع قدرتِهِ على أخذِ الكافرين لا يُعاجلُ المُصرّينَ بالعقوبةِ، وسلبُ ما في هذه الصَّنائعِ البديعة من آثارِ الرَّحمةِ[4]، أي: سمّى عدمَ التَّعجيل بالعقاب مغفرةً، على الاستعارة الأصليَّة، واشتقَّ لفظَ غفّار على التَّبعيَّة، والجامعُ تركُ العقاب، أو الغفّارُ الَّذي يغفرُ للكافرين؛ إنْ تابوا[5]، أو أنَّه يغفرُ لأوليائه ما يجتنونه ممّا لا يليقُ بجنابِهِ، ومن معاني هذه المبالغةِ أنَّ صفةَ السَّترِ على الذُّنوبِ متكرِّرةٌ منه سبحانه، يمحو ذنوبَ من يشاء عينًا وأثرًا بمغفرته[6]، وغرضُ المبالغةِ بيانُ كمالِ رحمتِه، والتَّرغيبُ في طلبِ المغفرةِ بالعبادة والإخلاص له[7]، وفي هذا حثٌّ على الإيمانِ به، أي: آمِنوا به؛ يغفرْ لكم.

في المبالغةِ بيانُ كمالِ رحمته سبحانه وترغيبٌ في طلبِ المغفرة بالعبادةِ والإخلاص له

بلاغةُ القصر في جملة: ﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّارُ﴾:

أفادَ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّارُ﴾ أسلوبَ القصر، بتعريف

توحُّدٌ بعزِّ هيبته وتفرُّدٌ بكمالِ رحمته

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(2) السعدي، تيسير الرحمن، ص: 719.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 146.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 229.
(6) الشربيني، السراج المنير: 3/ 432.
(7) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 146.

طرفَي الإسناد؛ حيث حصرَ صفةَ العزيزِ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتَنِع عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، وصفةَ الغَفّار الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، باللّه سبحانه، أي: هو وحدهُ العزيزُ الغفّار[1]، والقصرُ: هو قصرُ قلبٍ؛ لأنَّه قلبَ اعتقادَ المشركين النَّقصَ باللّه حين أثبتوا له الشُّركاء.

نكتةُ الجمعِ بين صفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾:

اجتماعُ الخوفِ والرَّجاءِ عاملٌ رئيسٌ وراء كلِّ تحرُّكٍ نحو الكمال

في الجمعِ بين ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ إيجادُ حالةٍ مِنَ الخوف والرَّجاء عند العباد، ومنهم المشركون، وهما عاملانِ رئيسانِ وراءَ كلِّ تحرُّكٍ نحو الكمال، فالجملةُ بمنزلةِ تهديدٍ وترغيبٍ للمشركين، فهو (غفّار) في أوجِ عزَّته وقدرته، وهو (قهار) في أوجِ رحمتِه وغفرانه، فبحكمِ عزَّته وقدرته المطلقة لا يمكنُ لأيِّ مذنبٍ ومشركٍ أنْ يهربَ من قبضةِ عذابه، وبمقتضى كونهِ الغفّار، فإنَّه يسترُ عيوبَ التّائبين وذنوبَهم، ويظلِّلهم بظلِّ رحمته، فهو سبحانه مع عزَّتِه وعظمتِه وكبريائِه غفّارٌ لمن عصاهُ، ثمَّ تابَ، وأنابَ إليه.

نكتةُ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾:

في التَّقديمِ مناسبةٌ لسياقِ قاهريّته سبحانه وبيانٌ لكمالِ عظمته

قدَّم البيانُ القرآنيُّ اسمَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على اسمِ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ لكونِه أنسبَ للسّياقِ، الذي هو بيانُ قاهريَّته وكمالُ عظمته سبحانه، بتفرُّده في خلقِ السَّمواتِ والأرضِ، وتعاقبِ اللَّيلِ والنَّهار، وتسخيرِ الشَّمسِ والقمر، فناسَبَ أنْ يُقدِّمَ اسمَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي يدلُّ على التَّهديدِ والوعيد، وأنْ يُؤخِّرَ اسمَ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ الذي يدلُّ على رحمتِه؛ تحريضًا على البدارِ بالتَّوبةِ قبل الموتِ حين يفوتُ التَّدارك، ولأنَّ لفظَ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ جاء تتميمًا للفظِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، فإنَّه لَمّا كان الإخبارُ عن كونِهِ عظيمَ القدرةِ يوجبُ الخوفَ والرَّهبة؛ كان الإخبارُ عن كونه عظيمَ المغفرةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 454.

يوجبُ كثرةَ الرَّحمة، وكثرةُ الرحمةِ توجبُ الرَّجاءَ والرَّغبة[1]، بما يؤذنُ باستدعائِهم إلى التَّوبةِ باتِّباع الإسلام، وكذلك في تأخيرِ اسم ﴿ٱلْغَفَّرُ﴾ مراعاةٌ للفواصل القرآنيَّة كـ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ و﴿كَفَّارٌ﴾، بما يُحقِّقُ إحكامًا في اللَّفظ.

وجهُ مناسبةِ ذِكر اسمَي ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّرُ﴾:

مع كونِ الخالقِ سبحانه عزيزًا كاملَ القدرةِ هو غفّارٌ عظيمُ الرَّحمةِ

أعقبَ البيانُ الإلهيُّ ذكرَ الأنواع الثَّلاثة من الدَّلائل الفلكيَّة، وهي: (خلقُ السَّموات والأرض، واختلافُ أحوالِ اللَّيل والنَّهار، واعتبارُ أحوالِ الكواكب لا سيَّما الشَّمس والقمر) بقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّرُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ خلقَ هذه الأجرامِ العظيمة وإنْ دلَّ على كون الخالقِ سبحانه عزيزًا، أي: كاملَ القدرةِ، إلّا أنَّه غفّارٌ عظيمُ الرَّحمةِ والفضلِ والإحسان[2]، فهو مع عزَّته وعظمتِه وكبريائه غفّارٌ لمن عصاه، ثم تابَ، وأنابَ إليه[3]، ولأنَّ اللّٰهَ تفضَّل على خَلْقِه بهذه الآياتِ: الشَّمس والقمر واللَّيل والنَّهار، وأعطاهم مُقوِّمات حياتهم، ومع ذلك لا ينظرُ إلى ذنوبهم وتقصيرهم في حقِّه تعالى؛ لأنَّه الغفّار، ويعفو عن كثير[4].

كما أنَّه لمّا كان الأجلُ المسمّى في قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ شاملًا للقيامةِ؛ أعقبه بقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّرُ﴾، أي: يوم القيامة، وفي هذا ترهيبٌ مع ترغيب[5]، وفي وصفِ الغفّارِ مناسبةٌ لذكرِ الأجلِ؛ لأنَّ المغفرةَ يظهرُ أثرها بعد البعثِ الَّذي يكون بعد الموتِ وانتهاءِ الأجل؛ تحريضًا على البدارِ بالتَّوبةِ قبلَ الموت حين يفوتُ التَّدارك[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 86.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13033.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 615.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّكوير واللفُّ:

التَّكويرُ أخصُّ من اللَّفِّ، الذي هو ضدُّ النَّشر، فاللَّفُّ عامٌّ في لفِّ شيءٍ ما حولَ شيء آخرَ على أيِّ شكلٍ كان؛ إذ أصلُهُ تَلَوّي شيءٍ على شيءٍ[1]، بينما التَّكويرُ: هو تلفيفٌ على جهةِ الاستدارة، كتكويرِ العمامة[2]، وهو لفٌّ مع جمع، فتكويرُ الشَّيء لفُّه، وضمُّ بعضه إلى بعض، كما تُكوَّرُ العمامةُ، وتُلفُّ[3]، والتَّكويرُ إدارةُ الشَّيء على شيءٍ، تهيئةً لجمعِهِ عليه؛ إذ أصلُ التَّكوير يدلُّ على دَوْرٍ وتَجَمُّعٍ، وكوَّرَ العمامةَ: دوَّرَها، وكوَّر المتاع: ألقى بَعْضَهُ على بَعْضٍ، أو جمعَه، وشدَّهُ، ومن معانيه كذلك: الزّيادة، وتَكْويرُ اللَّيْلِ عَلى النَّهارِ تَغْشيَتُهُ إيّاهُ[4]، وقد ناسبَ استعمالُ لفظِ التَّكوير في الآية لكون تكوير النَّهار واللَّيل هو لفٌّ من نوعٍ خاصٍّ، فهو لفٌّ دقيقٌ منتظمٌ؛ إذ يُديرُ هذا على ذاكَ، ويُديرُ ذاكَ على هذا، وفيه إشارةٌ إلى انتقاصِ اللَّيل والنَّهار وازديادهما.

التَّكويرُ أخصُّ من اللَّفِّ، فهو لفٌّ مع جمعٍ على جهةِ الاستدارة

التَّسخير، والتَّذليل:

التَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، فالمُسَخَّرُ: هو المقيَّضُ للفعل[5]، والتَّسخيرُ: هو القَهرُ على الفعلِ بلا إرادةٍ منهُ[6]، وسَخَّرَهُ: كلَّفَهُ ما لا يُريدُ، وقَهَرَهُ، وكُلُّ ما ذَلَّ، وانقادَ، أو تهيَّأ لك على ما تُريدُ؛ فقد سُخِّرَ لك، وتَسخيرُ اللهِ الأرضَ وما فيها والشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ لِلآدَميّينَ هو إجراؤُها على ما يوافقهم، وأنْ ينتفعوا بها مختلفَ وجوهِ الانتفاعِ مذلَّلةً لهم فضلًا منه تعالى[7]، بينما التَّذليلُ

التَّسْخيرُ سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، والتَّذليلُ خضوعٌ وانقيادٌ بسهولةٍ ولين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لفّ)، والزبيدي، تاج العروس: (لفف).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 247، ورضا، تفسير المنار: 8/ 404.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (كور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كور).
(5) الراغب، المفردات: (سخر).
(6) الكفوي، الكليات، ص: 163.
(7) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سخر).

مِن الذُّلِّ، ويدلُّ على الخُضوعِ والانقيادِ[1]، وأصلُه الضَّعفُ والهَوانُ والاستِكانَة[2]، وضِدُّ الذُّلِّ: العِزُّ والقوَّةُ، وضدُّ التَّذَلُّلِ: الصُّعوبَةُ، وذَلَّ الشَّيْءُ: سَهُلَ، ولانَ[3]، والذَّلولُ: السَّهْلُ مِن كُلِّ شَيْءٍ[4].

ولَمّا كانتِ الشَّمسُ والقمرُ أجرامًا سماويَّةً، لا يمكنُ للإنسانِ أنْ يسيطرَ عليها، أو يجعلها منقادةً إليه بسهولةٍ ولين؛ ناسبَ استعمال التَّسخير دون التَّذليل؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الأجرامَ مهيَّئةٌ لغرضٍ معيَّن، وهو ما يوافقُ منافعَ الإنسانِ ومصالحَهُ.

الجري، والحركة:

جـريُ الشَّمسِ والقمرِ هو حركةٌ خـاصَّـةٌ سريعةٌ مـسـترسـلـةٌ متَّصلة

الجريُ أخصُّ مِنَ الحركة؛ إذ الحركةُ عامَّةٌ، فهي ضدُّ السُّكون، وهي انتقالُ الجسمِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[5]، انتقالٌ قليلٌ ضعيف[6]، وأمّا الجَرْيُ؛ فهو المرُّ السَّريع[7]، أي: الحركةُ السَّريعة، وأصلُه: "انتقالٌ بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متَّصلة"[8]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظِ الجري دون الحركة؛ لكون حركةِ الشَّمس والقمر ليستْ حركةً عامَّةً عشوائيَّةً، وإنَّما هي حركةٌ خاصَّةٌ سريعةٌ مسترسلةٌ متَّصلةٌ في زمنٍ معلومٍ ونظامٍ محدَّدٍ.

الأجل، والوقت:

الأجـلُ غـايـةُ وقـتِ انـتـهـاءِ الشَّيءِ وحلوله، والـوقـتُ مـقدارٌ مِنَ الزَّمن

الوقتُ مطلقٌ، والأجلُ مقيَّدٌ، فالوقت: حركةُ الفلك، وهو مقدارٌ من الزَّمن، قُدِّرَ لأمرٍ ما، طالَ أم قَصُرَ[9]، والوقتُ وقتُ الشَّيء

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلل).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ذلل).
(4) اللخمي، شرح الفصيح، ص: 110.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حرك).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حرك).
(7) الراغب، المفردات: (جري).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جرى).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وقت).

قدَّره مقدِّرٌ، أو لم يقدِّرْهُ[1]، بينما الأجلُ هو غايةُ الوقت[2]، فهو الوقتُ المضروبُ لانتهاءِ الشَّيء، فأجَلُ الشَّيْءِ: مُدَّتُهُ ووَقْتُهُ الَّذي يَحِلُّ فيهِ، والأجلُ: هو وقتٌ يُحدَّدُ لانتهاءِ الشَّيء أو حلوله[3]، فأجلُ الإنسانِ: هو الوقتُ المضروب لانقضاءِ عمره، وأجلُ الدَّين: محلُّهُ، وذلك لانقضاءِ مدَّةِ الدَّين، وأجلُ الموتِ: وقتُ حلولِهِ، وذلك لانقضاءِ مدَّةِ الحياة قبلَهُ، ولا يكون الأجلُ أجلًا إلّا بالإخبارِ والتَّوقيت[4]، فمفهومُ الوقتِ أوسعُ مِن الأجل الَّذي يدلُّ على وقتِ انتهاءِ الشَّيء، ومِن هنا كان استعمالُ لفظِ الأجل في الآية أنسبَ؛ للدَّلالة على أنَّ جريَ الشَّمسِ والقمر لَمّا كان فيه تقريبُ فنائهما؛ جعلَ جريهما كأنَّه لأجلِ الأجلِ، أي: إلى وقتِ فنائهما من الحياة.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 271.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(3) الفيومي، المصباح المنير، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أجل).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 273.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»